البـر

البر كلمة رائعة، من الكلمات الإسلامية العريقة المنبت، والأصيلة فى الدلول والمفهوم، وهى أغزر الكلمات الإسلامية مادة، وأدقها تصويراً لما يقع تحت فعل الخير، وتعبيراً عما يجول فى النفس، من خواطر ونيات طيبة.

واستطاعت هذه الكلمة فى ظل عالمية الإسلام أن تتمتع وترتفع حتى تصعد أرقى الاختلاجات، فليس هناك معنى من معانى الخير ولا فكر من الأفكار الحسنة، ولا عاطفة من العواطف النبيلة، ولا سلوك من السلوك الإسلامى إلا وله بكلمة البر اتصال وارتباط، ولم أقف فيما قرأت على مفهوم يقارب فى شموله وعمومه واتساعه مفهوم البر فى الإسلام.

والبر فى الإسلام قيمة عليا من القيم الفاضلة، وأساس من أسس مكارم الأخلاق، وبعبارة أقرب وأوجز : البر هو جماع الخير كله.. والبر بالنسبة للإنسان جماع كل فضيلة.. ويتسع المفهوم ليشمل المعانى النفسية والأخلاقية الموجهة وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه.

وقد كان المسلمون يفهمون معنى البر على هذا الوجه ، ويدركون أن كل عمل صالح أو نية طيبة أو خلق مرضى. شعبة من شعب البر، وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله عن البر والإثم فقال له رسول الله ﷺ: «استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب».. وفى آية واحدة من سورة البقرة، يضع الله سبحانه وتعالى قواعد البر فى الإسلام وقواعد التصور الإيمانى.. وقواعد السلوك المنظم، وقواعد الأخلاق وقواعد الصحة، والكمالات النفسية. قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى**

الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1] .

قال الفيروزابادى فى كتابه «بصائر ذوى التمييز فى ألطاف الكتاب العزيز» وأصل الكلمة ومادتها أعنى (برر) موضوعة لخلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى فى نحو «إنه هو البر الرحيم» وإلى العبد تارة، فيقال بر العبد ربه أى توسع فى طاعته فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان: ضرب فى الاعتقاد وضرب فى الأعمال. وقد اشتمل عليها قوله تعالى : «ليس البر أن تولوا وجوهكم». وعلى هذا روى أنه ﷺ سئل عن البر فتلا هذه الآية. فإن الآية متضمنة للاعتقاد، ولأعمال الفرائض، والنوافل، وبر الوالدين، والتوسع فى الإحسان إليهما. ويستعمل البر فى الصدق لكونه بعض الخير. يقال: بر فى قوله وفى يمينه. وحج مبرور: مقبول وجمع البار: أبرار وبررة وخص الملائكة بالبررة من حيث إنه أبلغ من الأبرار . فإنه جمع بر، والأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار، كما أن عدلا أبلغ من عادل. . .

وآية البر هذه هى هذه هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية والعلمية والسياسية والاجتماعية، فهى ترشد فيما ترشد إلى أن «البر» لا يرتبط بشىء من المظاهر والصور والأشكال وإنما يرتبط بالحقائق وروح الكاليف. .

لذلك يرى علماءُ الأُمة الإسلامية أن هذه الآية اشتملت على جمل عظيمة وقواعد عمية، وعقيدة مستقيمة ومن اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله. والآية كما ترى مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام جامعة لكل أنواع البر.

فالخمسة الأُولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد وقد بينت الآية ذلك فى قوله تعالى:

---

(١) البقرة: ١٧٧ .

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾.

وماذا فى تلك الصفات من قيم تجعل لها هذا الوزن فى ميزان الله ؟ يقول المفكر سيد قطب: ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين إن الإيمان بالله هو نقطة التحول فى حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس، وفى الصف الواحد، أمام المعبود الواحد ثم ترتفع بها إلى فوق كل شيء وكل اعتبار.. وهو نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ومن التيه إلى القصد ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.. فهذه البشرية دون إيمانها بالله الواحد، لا تعرف لها قصدا مستقيماً، ولا غاية مطردة ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها فى جد، وفى مساواة كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات.. والإيمان باليوم الآخر وهو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة فى الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان وبأن الخير لا يعدم جزاءَه ولو بدا أنه فى هذه الأرض لا يلقى الجزاءَ، والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذى هو مفترق الطرق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان، والإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً والرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية ووحدة إلهها ووحدة دينها ووحدة منهجها الإلهى، ولهذا الشعور قيمة فى شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات..

فإذا انطلق المسلمون بهذه القيم الرفيعة لإحقاق الحق، وإعلاء كلمة الله، وسيادة المنهج الإسلامى فتلك دعوتهم، ولا حياة للمسلمين بدون هذه الدعوة.. والعقيدة الإسلامية تعتبر أصلح العقائد ومنهجها التربوى الموجه للضمائر يعد أصلح المناهج ومن هنا كان على المسلمين أن يواجهوا تحديات العصر أيا كان نوعها وأيا كانت أساليبها وأشكالها بالمنهج الإسلامى.

والنوع الثانى من أقسام البر التى ترجع إليها الخمسة عشر من الخصال التى جاءَت فى آية البر التى معنا يشمل ستة خصال جاءَت بعد الخمسة الأُولى منها

وهذه الست تتعلق بالكمالات النفسية التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد، وهى قوله تعالى:

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾.

وهذه الخصال الست تدخل فى البر العمل.. والعمل هو مدد العقيدة، وفى نفس الوقت هو ثمرتها يحفظها وينميها ويدل عليها. «وقيمة المال» هى الإنعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة.

انعتاق الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الأريحية، ويقبض الأرواح عن الانطلاق فهى قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال، وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال، لافى الرخيص منه ولا الخبيث فيتحرر من عبودية المال. وهذه العبودية التى تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس، ويتحرر من الحرص والحرص بذل اعناق الرجال وهى قيمة إنسانية كبرى فى حساب الإسلام الذى يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج فى محيط الجماعة ارتباطاتها، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس فى المجتمعات ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية فى محيط الجماعة..

النوع الثالث يشمل الأربعة الأخيرة من الخصال التى جاءت فى الآية، وهى خصال تتعاق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس جاء فيها قوله تعالى:

﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

فقد جاء بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مبدآن هامان من مبادىء البر فى الخلق.

المبدأ الأول : مبدأُ القيام بالواجب، وقد عبرت عنه الآية: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾.

والعهد لفظ شامل يجمع ألوانا من الارتباطات والالتزامات لا غنى للنفس عنها ولا استقامة للحياة بدونها. أَو عهد بين الإنسان والإنسان . أو عهد بين الدولة والدولة. وعهود الله مع عباده كثيرة منها العام ومنها الخاص. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[1].

وحظ الناس اليوم من هذا العهد هو ترابط المصلحين والدعاة على مبدإِ الخير والصلاح والإِصلاح والتربية والتوجيه. أما عهود الناس بعضهم مع بعض، فهى تتمثل فيما يحدث بينهم من عقود والتزامات مالية أَو غير مالية.

أَو فيما يحدث بين الأُمة والأُمة فى تحديد الحقوق والالتزامات وكلها يجب الوفاءُ بها ما لم تكن فى معصية الله.

والوفاءُ بالعهد سمة الإِسلام التى يحرص عليها ويكررها القرآن كثيراً ويعدها آية الإِيمان الآدمية وآية الإِحسان وهى ضرورة لإِيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأَفراد، وعلاقات الجماعات، وعلاقات الأُمم والدول، تقوم ابتداءً على الوفاءِ بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعاً قلقاً لا يركن إِلى وعد ولا يطمئن إِلى عهد، ولا يثق بإِنسان من الوفاءِ بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواءِ، قمة لم تصعد إِليها البشرية فى تاريخها كله، ولم تصل إِليها إِلا على حداء الإِسلام وهدى الإِسلام.

والمبدأُ الثانى: مبدأُ مقاومة الطوارىءِ والتغلب على عقبات الحياة، وقد عبرت عنه الآية:

﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾.

والصبر عدة النجاح فى الحياة، والسبيل الوحيد للتغلب على جمع الصعاب.

---

(١) يس: ٦٠.

إن الصبر فى الإسلام هو الرجاءُ فى الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولابد للأُمة الإسلامية التى نيطت بها القوامة على البشرية والعدل فى الأرض، والتى هى خير أمة أُخرجت للناس، ولابد لها أن تهيءَ نفسها لإصلاح البشرية، وتتجمل بالصبر، وقوة التحمل.

وهكذا تبين آية البر فى سورة البقرة، أن الأُمة الإسلامية هى أُمة القيادة والتوجيه. وأن لها فى هذا العالم صدارة يجب ألا تفرط فيها. ومن هنا كان على المجتمعات الإسلامية أن تحافظ على خصال البر التى جاءَ بها الإسلام.. وهى تشمل البر فى العقيدة، والبر فى العمل ، والبر فى الخلق.

* * *

obeikandl.com